على هامش النقد :

همزات الشـــياطين

مجموعة أقاصيص : عبد الحميد جودة السحار

الأستاذ ســـيد قطب

كان هذا الكتاب — وهو حلقة من سلسلة لجنة النشر للجامعيين — مفاجأة كاملة لى . فأنا أعرف مؤلفه الشاب ، فاعرف أنه أديب مجتهـد ؛ وقد قرأت له ما سمح وقتى المحدود بقراءته من كتبه الكثيرة التى يتجه بها غالباً إلى التاريخ الإسلامى ليعيد عرض وقائعه الجافة فى صورة قصصية يحافظ فيها على دقة التاريخ مع سهولة العرض وتشويقه ، وهو عمل نافع مشكور .

وقرأت له قصته الأولى عن : أحمس بطل الاستقلال ، وهى لا تبشر بشىء ! ثم قرأت — على وجه الخصوص — كتابه « فى الوظيفة » وأعجبنى فيه قدرته على التصوير السريع باللمسات الخاطفة ، وقلت عنه فى عدد « الرسالة » بتاريخ ٢٢ يناير ١٩٤٥ :

« إن صاحب هذه الصور الانتقادية موهوب فى فن التصوير السريع . ومهما أخذت عليه من عيوب فى عمله الفنى ، فإنك لن تخطئ اللامح التى يريدها ، والسحنة التى يبغيها ، وهذا وحده يكفى .

« إنه ذو عين لماحة ، تسجل الحركة الحسية ، كما تسجل الحركة النفسية . ثم تتلف اللمحة المرسومة بروح السخرية ، وتمزجها بعنصر الفكاهة ، حتى ليخيل إليك أنه ينظر إلى الدنيا كما ينظر إلى ملهاة كبيرة ؛ تأخذ عينه فيها لمحات التناقض ، وتأخذ حسه فيها مواضع السخرية ، وتأخذ نفسه فيها مواطن الدعابة ... »

ولكن هذا كله شىء ، و« همزات الشياطين » شىء آخر ، ومع أنها موسومة بهذه السمة التى عبرت عنها فى تلك الفقرات ، إلا أن الشقة بينها وبين جميع أعمال المؤلف الشاب بعيدة ، فهى وثبة واسعة المدى ، لا بالقياس إلى جميع أعماله ، بل بالقياس إلى أقصى ما كان يتوقعه الناقد لهذه الأعمال !

وقبل أن أبعد فى طريق التعميم أخصص ما ذا أعنى بأنه وثبة واسعة المدى : تحتوى هذه المجموعة على اثنتى عشرة أقصوصة ، وقد صدرها المؤلف ببحث مختصر مفيد عن الرواية والأقصوصة يؤلف مع الفصل الذى احتوى عليه كتاب « فنون الأدب » عن القصة والمسرحية تأليف (هـ . ب تشارلتن) وتعريب الأستاذ زكى نجيب محمود . والفصل الذى كتبه الأستاذ محمود تيمور عن « فن القصص » ... كل ما تحويه المكتبة العربية تقريباً عن هذا الباب الضخم من أبواب الأدب : باب القصة !

من هذه المجموعة أقصوصة طويلة بعنوان « وسوسة الشيطان » تستغرق أكثر من ثلاثين صفحة ، وهى الأقصوصة الرئيسية فى المجموعة ... وهذه هى الأقصوصة الفذة البارعة فى المجموعة ، وفى أعمال المؤلف كلها منذ أن أخذ يكتب وينشر . أما بقية المجموعة فشىء عادى فيه الخطأ وفيه الصواب ، وبعضها تبدو فيه العجلة التى لا تغتفر لمن يملك أن يخرج مثل هذه الأقصوصة الرئيسية !

وهذه الأقصوصة هى التى فاجأتنى مفاجأة تامة ، جعلتنى أعاود النظر فى كل ما قرأته للمؤلف ، لعلنى أكون قد أخطأت فى تقديرى أول الأمر ، أو لعل بعض كتبه التى لم أكن قرأتها توحى بهذه الوثبة الواسعة !

ثم عدت بعد هذا كله مقتنعاً بأنها وثبة واسعة ، ومفاجأة كاملة ! وقادتنى هذه المفاجأة إلى أن أراجع كل ما تحويه مكتبتى من الأقاصيص المؤلفة باللغة العربية — وهى تكاد تشمل كل ما تحويه المكتبة العربية فى هذا الباب — فوجدت هذه الأقصوصة تقف وحدها متفردة بين هذا الحشد من الأقاصيص .

وأردت أن أتابع الموازنة ، فعدت إلى ما تحويه مكتبتى من الأقاصيص المترجمة — وهى تكاد تشمل كذلك كل ما نقل إلى اللغة العربية — فوجدت هذه الأقصوصة تقف رافعة الرأس مع أعظم ما أعجبت به فى هذه المجموعة ... ترتفع على معظمه ، وتساوى أقله ، وتنحنى أمام عدد صغير جداً لا يبلغ عشر أقاصيص من حوالى المائتين !

تصور هذه الأقصوصة تجربة نفسية كاملة للخطيئة . وهى تمثل — مع استقلالها وأصالتها — صراع كل « بافنوس » أمام

« تايس » وكل « عبد الرحمن القس » أمام « سلاَّمة » ، بل صراع كل « آدم » أمام فتنة الفاكهة المحرمة . وهي تصور هذا الصراع باللمسة الهينة ، والإيماءة القصيرة ، واللفظة الموحية ، والحركة المعبرة ، وتلم في الطريق بكل خلجة وكل خاطرة وكل تأثر وكل انفعال ، وتجمع بين السرعة المتحركة في السياق ، والدقة الكاملة في رسم الخلجات الخفية ، والوسوسات الخافتة ، وتصور « فلماً » كاملا للصراع النفسي في موقف خاص !

وذلك كله دون حذلقة ، ودون إبراز للتحليل النفسي الذي يأخذ هيئة التفسير العلمي فيفسد الفن القصصي ، إلا في موضعين عابرين ألم بهما إلماماً سريعاً لحسن الحظ ، فلم يفسدا السياق ، وإن غضا من قيمته الفنية قليلا .

والصعوبة التي تواجه ناقد القصة أنه لا يملك عرض الجمال الفني فيها كما يريد ، فالتلخيص عبث وقتل لهذا الجمال ، فهو — على أحسن الأوضاع — يلخص الفكرة ، وماذا تجدي الفكرة إذا لم يستطع تصوير طريقة العلاج ؟ وكل وصف لطريقة العلاج يعد تشويهاً بالقياس إلى حقيقة العمل الفني في السياق !

ولكنني بعد هذا كله ملزم أن أعرض على القارئ هذا التشويه:

صلاح شاب في الثلاثين ، متدين ، واثق بنفسه وبإيمانه ، فقد وصل إلى هذه السن ولم يرتكب معصية قط — على الأقل حسبما يعتقد — فهو صاحب حق في الجنة لا منازعة فيه ، ولأنه لم يعان من قبل أية تجربة نفسية ، فهو يقسو على الخطيئة والخطاة ، ولا تنفسح نفسه لأي عطف عليها أو عليهم ، ولا يحاول أن يستمع لأية معذرة من الظروف واللابسات والاضطرار .

وحين يسمع من الواعظ تحذيره من النفاق وتخويفه للناس من عذاب النار ، لا يحفل ولا يجفل ، فإنه ناج من النار ! وحين يقص على زوجته نبأ طرد عبد التواب أفندي من عمله لأنه اختلس يعلق على هذه الجريمة بقسوة ، ولا يقبل من زوجه التماس أية معذرة لهذا السارق الأثيم ! وحينما تتقاعس زوجه عن صلاة الفجر لأن حلاوة النوم تقعد بها في السرير ، يلح عليها حتى تقوم ، لأنه « يود أن يزحزحها عن النار ... » وحينما يعلم أن فتاة يتركها أهلها لتشتغل بالتدريس بعيدة عنهم، يهم بأن يذهب إليهم ليوبخهم على هذا الاستهتار ! ويخرج صلاح لعمله بعد الصلاة وقراءة « الحزب » وهو يحلم بالجنة التي دخلها فلم يجد «سميرة» زوجه ثم إذا هي تدخلها إكراماً لخاطره! ... يخرج حيث يعد له المؤلف أو تعد له الحياة ، الفتنة الأولى مع هذه المدرسة ذاتها :

« أغلق صلاح باب مسكنه خلفه ، وقبل أن يهم بالنزول في الدرج ، فتح باب المسكن المواجه له ، وخرجت منه فتاة واسعة العينين ، ناهدة الصدر، نحيلة الخصر، وما إن تلاقت عيناه بعينيها حتى غض من بصره ، وتأخر خطوات ليفسح لها الطريق ؛ فمرت من أمامه ، وملأت خياشيمه رائحة عبقة أنعشت نفسه ، ولكنه ظل مطأطئ البصر ، وهبطت الدرج قافزة ، ولم يقدر صلاح على أن يقمع شهوة التطلع طويلا ، فنظر من بين أهدابه المسبلة فوقع بصره على ثديين يترجرجان صاعدين هابطين ، فأغمض عينيه ، وتعوذ من الشيطان الرجيم ، وخفت وقع أقدامها وتلاشى ، فوجد نفسه يهبط مسرعاً — وما كان لينزل إلا متمهلا وقوراً متخذاً سمة الكهول الموقرين — وسأل نفسه عما دفعه إلى الهبوط السريع، فرد ذلك إلى جو الربيع الذي أنعشه ، ودب فيه نشاط حبيب إلى النفس ، وبلغ الطريق فلمحها تنفذ في السير، وتصعد إلى الطوار خفيفة رشيقة ، وما تقطع في الطريق خطوات، حتى تعود لتقفز إلى الطوار ثانية كأنها خيال يطير ، لا يبغي المكوث على الأرض ولا يطيق اللصوق بها . ووجد نفسه ينفذ في السير ، ولكن علاه الإسراع ، وما هناك حاجة إلى الإسراع، فما زال في الوقت متسع ، وأحس همساً خفيفاً ينبعث من داخله يستفسر: ترى أتنفذ في السير لتلحق بها وتتطلع إليها ؟ وما همس هذا الهاجس في نفسه حتى تفزع وجفل، وضيق من خطوه، وتعوذ وابتدأ في قراءة المعوذتين!

ثم تتابع الحياة دورتها ، ويتابع المؤلف خطوات صلاح ، وصراعه مع نفسه، ومغالطته لها ، وهواجسه وخطراته ، وتناقض أحاسيسه ، وإقدامه وإحجامه ، واقترابه في كل إقدام وكل إحجام من الهزيمة والاستسلام ؛ في أسلوب بارع فائق لا نستطيع مجاراته فيه ولا نملك تلخيصه ، حتى نلتقي بالبطل في موقف الهزيمة الأول : «وانطلقا في الطريق الهادئ الساكن الممتد على النيل ، وسارا صامتين كأنما استمرارا صمتهما من صمت المكان ، واقتربت « بديعة » منه حتى التصق كتفها بكتفه ، واصطدمت يدها بيده أكثر من مرة ، واستقرت يدها في يده أخيراً ، فراح يضغطها

ضغطاً خفيفاً ، فكان يحس بنشوة لذيذة تسرى فيه ، ما كان يحسها لو أن اليد التى كانت فى يده «سميرة» ، واستمر السكون مخيما عليهما ، وكان سكوناً خارجياً ، ولم تكن نفساهما ساكنتين ، بل كانتا تعتلجان بشعور فوار ، فقد كان كل منهما يتمنى أن يضم صاحبه إلى صدره ليطفئ ناره !

« وبلغا مقعداً خشبياً ، فجلسا يحدقان فى النيل برهة ، ثم زحفت « بديعة » على المقعد بخفة حتى التصقت به ، فملأ عبيرها الشذىّ أنفه ، وحرك نفسه ، فتاق إلى أن يضمها إليه ، ويطوقها بذراعيه ، ويعطر وجهها قبلات ، ولكنه قمع شهوته ، وقاوم رغبته ، ورمى بنظره إلى النيل ، وجعل يرقب موجاته المتكسرة محاولا أن يتشاغل عن هواتف نفسه ، ولكن رغبته خنقته وسيطرت عليه ، فارتد بصره إليها ، وراح يتطلع إليها فى وله واشتهاء . . والتقت العيون ، فترجمت عما تخفى الصدور ، فقالت « بديعة » وأسندت ظهرها إلى صدره ، فخفق قلبه ، وارتفع نبضه ، وسرى الدم حاراً فى بدنه ، حتى أحس به يكاد يشوى وجهه ، وانبهرت أنفاسه قليلا ، وضاقت حدقتا عينيه قليلا ، واضطرب كثيراً ، وأحس شعرها الأسود السبط الجميل الذى تمنى يوم جلست أمامه فى السينما أن يمر بيده عليه ، يلمس خده ، فسرت رعدته فى جسمه ، وارتفعت يده دون أن يتكلف ذلك ، وراحت تمر على شعرها فى حنان ، فرفعت عينيها المتكسرتين إليه وهى مستلقية على صدره ، واستدارت قليلا كأنما استدارت للقبل ... ورنت إليه فى دلال ، وزمت شفتيها تدعوه فى خبث إلى اللثم والعناق ... فلم يستطع أن يقاوم تلك الفتنة المرتمية فى أحضانه ، ولا نداء العينين الواسعتين الساحرتين ، ولا الشفتين المزمومتين المرتجفتين قليلا ، المغريتين كثيراً ! »

وهكذا يمضى المؤلف بصلاح المسكين فى سياق مصور دقيق على هذا الطراز حتى يصل به إلى الدار : « وتذكر فى الطريق دعاء ما كان يجرى له ببال قبل اليوم ، ولم يتحرك به لسانه أبداً ، فأخذ يردده فى نفسه فى حرارة يحس نارها تصهر صدره ، ولأول مرة يحس جلال ذلك الدعاء ، واستمر يردده وهو يصعد الدرج : « اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ... اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى » !

« ودق الباب ففتحته زوجه ، فدخل وأغلقه خلفه ، ثم طوقها بذراعيه ، وراح يقبلها فى لهفة وهو يتمتم : « سميرة .. سميرة ؟ » كأنما كان فى سفر طويل عاد منه ، وخطر داهم يهدد حياته ، وأحس كأنه يود أن يفضى لها بكل شىء ، وأن يقص عليها قصة ضعفه ، ولكنه تريث ، وتخلصت منه فى رفق ، وسألته فى ارتياب : ما بك الليلة ؟ فقال : لا أدرى ، إنى إليك مشتاق كأنى لم أرك منذ سنين ! فقالت : أأعد العشاء ؟ فقال : انتظرى حتى أصلى العشاء !

« ودخل حجرته ، وأخذ يخلع ملابسه ، ولم ترحه نفسه المهتاجة ، بل راحت تخزه ، فسمع صوتاً يهتف به من أغوار نفسه : « يالك من منافق ! كيف سمحت لنفسك أن تضع شفتيك الآثمتين على شفتيها الطاهرتين ؟ وكيف رضيت أن تلف ذراعيك اللوثتين بخصرها ؟ وأن تلصق صدرك الخبيث بصدرها ؟ يا لعارك ! »

ثم يعتزم التوبة والتكفير بألا يلقى بديعة مرة أخرى . ويصر على ذلك إصراراً ونفسه تهتف به إليها هتافا ، ويصمد فى الظاهر وهو يقرب من الخطيئة الكبرى ... ثم تقع هذه الخطيئة فى أشد لحظاته إصراراً على ألا يلمح « بديعة » أو يراها ! . ثم يصبح الصباح ! - « واستمر ضميره يخزه وخزاً شديداً ، وهو يتلوى من العذاب ، وضاق صدره فترقرق الدمع فى عينيه فلم يستطع حبسه ، فجرى على خديه ، واستمر فى عذاب حتى ارتفع صوت المؤذن يؤذن بالفجر . فأحس كأنه نار تصب فى أذنيه . فوضع إصبعه فى أذنه ليصمها عن سماع الأذان الذى يزيد من أشجانه ، ولكن صوت المؤذن كان يقرع سمعه فكأنه شواظ من نار سددت إلى قلبه فخرقته حرقا ، وارتفعت النار إلى صدره فأضنته ، وأحس «سميرة» تنهض من فراشها ، فأحس عرق الخجل ينصبب منه حتى بغمره ، واقتربت من سريره فود أن تبتلعه الأرض قبل أن تمسه ، ولكن يد « سميرة » لمست كتفه فى رفق ، وهمست فى حنان : — صلاح ... صلاح ... انهض قد أذن المؤذن ...

« فهم بأن يصيح فيها أن تبتعد عنه ، وألا تلمسه ، ولكن صوته انحبس ، ولم يجد مخرجا . فمادت تهزه وتهتف : — صلاح قم . الصلاة خير من النوم . واقتربت بوجهها من وجهه ، فلمحت